

د. يسري مصطفى

متخصص في قضايا النفاقة وحقوق الإنسان

المور النمطية

الأمر في مرآة الذات

فعندما تصور ونصور جماعة ما بأنها شديدة الغباء، فهذه صورة نمطية، ولكنها تكون كذلك أيضًا عندما تصور أو نتصور جماعة ما بأنها شديدة الذكاء. فكلا الصورتين ليس لهما علاقة بالحالة الفعلية لهذا الآخر، وإنما بطريقتنا في الرؤية والحكم على الآخرين. والآخر الذي نتحدث عنه هو ما ليس نحن، فقد يكون شعبًا آخر، أو قد يكون ذوي اللون الأسود بالنسبة لذوي اللون الأبيض، والنساء بالنسبة للرجال، إلخ. وبالتالي فإن الآخر قد يكون من خارج الجماعة، وقد يكون داخل فئة اجتماعية من داخل المجتمع، ولكنها مختلفة من حيث الجنس أو الدين أو اللغة أو اللون أو حتى الوضع الاجتماعي.

أما من حيث التعريف، فإن الصورة النمطية، حسب مصادر العلوم الاجتماعية، هي أولاً: صورة جاهزة ومسبقة عن الآخر، وثانيًا: ذات طبيعة جماعية، وثالثًا: مفرطة في التبسيط ولا تركز على الملاحظة والإدراك الموضوعي، ورابعًا: غالبًا ما تكون سلبية، وخامسًا: أنها وثيقة الصلة بالعنصرية والتعصب والتحيز. ولا يعني هذا أن الصور النمطية مجرد أوهام نخزنها في المخيلة، بل هي جزء من الفعل الثقافي والاجتماعي الخاص بصياغة العلاقات بين الجماعات والفئات، وفي تشكيل الهويات.

فمن ناحية أولى، عندما نقول إن الصور النمطية هي صور جاهزة ومسبقة عن الآخر، فهذا الأمر يعني أنها تتعلق بالذات قبل الآخر، وتتصل مباشرة بعمليات بناء وتشكيل الهويات

تشكل «الصور النمطية» Stereotypes ممارسة عامة في حياة البشر، فنحن نرى الآخرين كواقع وكصور، كما يرانا الآخرون بالطريقة ذاتها: واقعًا وصورًا. وليس معنى ذلك أن الواقع شيء والصور شيء آخر، بل ثمة تداخلات والتباسات عديدة، فأحيانًا ما تكون الصورة التي نكونها عن الآخر أكثر تأثيرًا من الواقع لأنها هي التي تحدد مواقفنا وسلوكياتنا إزاء هذا الآخر. فعندما نكون صورة سلبية عن الآخر، فسوف نتخذ كل الأساليب الاحترازية للتعامل معه من هذا المنطلق، حتى لو أن ممارسات وسلوكيات الآخر تأتي عكس تصوراتنا. ولهذا فإن الصور النمطية تسمى قوالب جامدة أو ثابتة، وحتى تتغير تحتاج أن نغير نظرتنا للآخر، مما يعني تغيير طريقتنا في الإدراك والتفكير. وبالتالي فإذا كانت الصور النمطية تتعلق بالذات أكثر مما تتعلق بالآخر، وهذا ما سأحاول مناقشة في هذا المقال، أي دور الصور النمطية في تشكيل الذات وبناء الهويات.

ويعتبر مفهوم «الصور النمطية» أحد المفاهيم الأساسية المرتبطة بتعقيدات العلاقة بين الذات والآخر، شأنه في ذلك شأن العديد من المفاهيم الأخرى مثل العنصرية والتعصب والتحيز. ولكن ما يجعل من مفهوم الصور النمطية مختلفًا هو أنه لا ينطوي على فعل مادي مباشر، وإنما هو فعل ثقافي ذهني يتمثل في تشكيل صورة عن الآخر غالبًا ما تكون سلبية، ولكنها أيضًا يمكن أن تكون إيجابية.

الجماعية. وكما هو معروف فإن بناء الهوية يتطلب دائماً رسم حدود لتمييز الذات عن الآخر القومي أو الديني أو العرقي أو الجنسي.

وعملية رسم الحدود ليست مسألة مادية ولكنها مسألة ثقافية يتم بموجبها تشييد خصائص للذات كأن تكون أصيلة أو راقية أو أكثر قوة وذكاء، وباختصار أن تكون إيجابية بالمعنى القيمي والثقافي. وحتى تكون كذلك فإن الصورة لن تكتمل إلا من خلال وضعها في مقابلة مع النقيض أي غير الأصيل والمتخلف والأقل قوة والأكثر غباء، وهذا هو الآخر الذي نصوره ونتصوره حتى تظهر الحدود وتظهر معها خائص الذات بوصفها الجانب المشرق في الصورة.

وبالتالي فسوف نكون أذكاء ليس لأننا كذلك بل لأن الآخر الذي نصوره ونتصوره يتسم بالغباء، ونحن شرفاء ليس لأننا كذلك بل لأن الآخر الذي نصوره ونتصوره من طبعه الخيانة. وهكذا فإن عمليات بناء هوية الجماعة تتطلب خلق صورة عن آخرين هي النقيض لما نريد أن نكونه.

ومن ناحية ثانية، بما أن الصور النمطية مرتبطة بالهوية، فإنها لا تعكس تصورات فردية بل جماعية، بمعنى أن هذه الصور لا يشكلها فرد وحيد في الجماعة، بل هي صورة تكونها وتخترنها الجماعة ويؤمن بها الأفراد باعتبارها اعتقاداً جماعياً. فأن تنتمي لجماعة دينية، عليك أن تعتقد وتعيد انتاج التصورات الدينية لهذه الجماعة، والتي غالباً ما تعتبر ذاتها الأكثر إيماناً مقارنة بالجماعات الدينية الأخرى، التي إما أن تكون كافرة أو منقوصة الدين. ومن ثم فإن جزء من عملية بناء الهوية الدينية للأفراد هو الإيمان بأن دينهم هو الأفضل. وينطبق هذا على الانتماء القومي أو العرقي أو الجنسي.

ومن ناحية ثالثة، فإن كون الصور النمطية تعبيراً عن رؤى واعتقادات جماعية وأحد متطلبات بناء الهوية، فإنها في الغالب ما تكون صوراً بسيطة ومباشرة وغير قابلة للنقاش، لأنها لا تحتاج للتفكير ولكن فقط الاعتقاد والإيمان. فأن نصف جماعة أخرى بأنها تتسم بالغباء أو الخيانة، فهذا أمر يجب أن يكون من

المسلمات، لسبب بسيط، وهو أنه ضروري لكي يكونوا مختلفين عنا نحن الأكثر ذكاء والأعلى شرفاً.

ولو لاحظنا، مثلاً، الطريقة التي يتم بها تنميط النساء بأنهن أدنى مكانة من الرجال، سنجد أن الأسباب ساذجة وبسيطة وليس لها أساس علمي أو موضوعي، ولكنها قوية لأنها تقع ضمن دائرة الاعتقاد، فكلمة امرأة تحمل في ذاتها الكثير من الدلالات السلبية في المخزون الثقافي.

ومن ناحية رابعة، غالباً ما تكون الصور النمطية سلبية، وهذه هي القاعدة، أما أن تكون هناك صوراً نمطية إيجابية فهذا ممكن ولكنه استثناء. وهذا أمر مفهوم، لأن الصور النمطية كوسيلة لبناء صورة إيجابية عن الذات تتطلب تكوين صورة سلبية عن الآخر. فأهل ديانة ما أفضل فقط لأن أهل الديانات أخطأوا الطريق القويم، وأن الرجال أفضل لأن النساء لهن خصال أدنى، وهكذا. وبالتالي، فإن صناعة الصور السلبية عملية ضرورية بالمعنى الوظيفي من أجل بناء صورة إيجابية عن الذات والهوية. وهذا هو الأصل في علمية بناء الهويات، وحتى لو انتقدت جماعة ذاتها فإن ذلك يكون من خلال التشبيه بالآخر الذي هو أدنى من حيث المكانة أو القيمة. وبالتالي ستكون نوعاً من السبة أن تصف رجلاً بأنه امرأة.

وأخيراً، صحيح أن الصور النمطية تلعب دوراً في بناء صورة إيجابية عن الذات من خلال تشكيل صورة سلبية عن الآخر أو الآخرين، ولكن هذه العملية ليست عملية ثقافية سلمية، ففي كثير من الأحيان تكون عملية خطيرة وعواقبها وخيمة. إن الصور النمطية ترتبط في الغالب بظواهر مدمرة كالعنصرية والتعصب والتحيز. وهنا قد تكون مدخلا لارتكاب جرائم بشكل منهجي ومنظم. وفي الحقيقة أن الصور النمطية في هذه الحالة تقدم المبرر للاستبعاد أو التمييز أو حتى قتل الآخر. فعندما يتم تنميط الآخر الديني على أنه كافر، فهذا مبرر لقتله، وتنميط النساء على أنهن أقل مرتبة فهذا يبرر ممارسات العنف ضدهن، وهكذا. وبالتالي فإن الصور النمطية ليست مجرد عملية ذهنية، بل إنها تؤدي إلى أفعال مادية، وهنا تحديداً تكمن خطورتها.

وبهذا المعنى فإن التحرر من الصور النمطية لا يعني فقط تحرير الآخر من الصورة أو القوالب الجاهزة، بل تحرير الذات من أنماط تفكير سلبية. ولا شك أنه كلما ارتقت الأمم في طرق تفكيرها وأصبح العلم والمعرفة أحد المحددات لرؤية الذات

والآخر، كلما تراجعت سطوة الصور النمطية. وهذه مسألة بالغة التعقيد، لأنه حتى في المجتمعات الأكثر تطوراً، لا زالت هناك الكثير من الصور النمطية، ولعل رؤية الغرب للمجتمعات الأخرى خير مثال على ذلك.

ثابتة. ولكن الأمر لا يتوقف فقط على المعرفة العلمية والتي تبدو نظرية، فالتغيرات تحدث عندما تأخذ أبعادًا اجتماعية وسياسية. إن تغير موازين القوى بين الفئات والجماعات والأمم يؤثر مباشرة على ثوابتها ومعتقداتها، ومن ثم على الصور النمطية التي ترى الآخر من خلالها. ولعل المثال الأبرز في هذا السياق هو الصور النمطية بشأن النساء والرجال والتي تركز على معتقدات ثقافية وموازن قوى اجتماعية تصور الرجال على أنهم أشداء والنساء على أنهن ضعيفات، ولكن مع تطور المجتمعات وحصول النساء على الكثير من الحقوق، بدرجات متفاوتة بالتأكيد، تغيرت موازين القوى، مما أدى إلى تراجع الصور النمطية السائدة في الكثير من المجتمعات والأوساط.

وهكذا فإن مواجهة الصور النمطية تحدث إما بشكل طبيعي من خلال التطور العلمي والإصلاح الثقافي، ولكن التنميط عملية اجتماعية وثقافية قادرة على المقاومة والبقاء. ولأن الأمر كذلك، فإن مواجهة التنميط لا يجب أن تركز فقط على المقاومة الطبيعية، بل يجب أن يكون هناك تدخلات، تمامًا مثلما يجري التعامل مع الأمراض، والتي تحتاج إلى مقاومة ومناعة طبيعية، ولكنها تحتاج أيضًا إلى تطوير علاجات وربما جراحات.

وتعتبر السياسات والتربوية والتشريعات المرتكزة على مبادئ حقوق الإنسان أهم العلاجات التي يمكن من خلالها مواجهة أعراض التنميط كمرض اجتماعي. فإذا استعرنا النموذج الطبي في مواجهة الأمراض، فإن لدينا نظامين للمواجهة الوقائي والعلاجي. فمن المنظور الوقائي، يمكن لحقوق الإنسان أن تسهم في تغيير القيم الثقافية السلبية وفي مقدمتها التصورات العنصرية وتلك التي تبرر التمييز وعدم المساواة بكافة أشكالها. أما من المنظور العلاجي، فإن الأمر لا يرتبط بالتنميط كصور ولكن كمارسات تشكل انتهاكًا، وهنا ينبغي طرح سؤال أساسي وهو: متى يعد التنميط انتهاكًا لحقوق الإنسان؟

تعتبر الصور النمطية أحد الظواهر الثقافية والاجتماعية الشائعة، حيث يتم تصنيف الأشخاص والجماعات لتمييزهم عن الآخرين. ولذا فإن التعبير الأمثل عن التنميط أو الصور النمطية هو وصفها بالقوالب الثقافية الجاهزة والتي يتم وضع الأشخاص والجماعات فيها وعزلهم ثقافيًا واجتماعيًا من خلال أحكام غالبًا ما تكون سلبية، ولكنها أيضًا يمكن أن تكون إيجابية.

والمشكلة ليست في كونها إيجابية أو سلبية، ولكن لكونها غير موضوعية ومخلّة. ومع ذلك، فإذا كانت الصور النمطية هشة لأنها لا تركز على أساس علمي أو موضوعي، إلا أنها تتمتع بقوة من الناحية الثقافية، وسبب قوتها أنها ترتبط بما يُعرف بسياسات الهوية، فوضع الآخر في قالب معين كأن يكون غبيًا أو عنيفًا أو كسولًا إلخ، يعني أنه جزء من جماعة هذه هي سماتها الثقافية أو حتى البيولوجية، وهو ما يبرر استبعاده وربما السيطرة عليه.

ولأن التنميط يرتبط بسياسات الهوية فإن عمليات التصنيف لا تتعلق فقط بالثقافة كالانتماء لجماعة دينية أو ثقافية أو لغوية معينة، ولكن أيضًا بالبيولوجيا كلون البشرة والانتماء العرقي أو الجنسي وهو ما يجعل الصور النمطية تبدو وكأنها مسألة طبيعية، بمعنى أنها ليست منتجًا ثقافيًا يجري إنتاجه بشكل فردي، بل انعكاسًا لأفكار ومعتقدات ثقافية يجري من خلالها النظر إلى الآخرين ضمن الجماعة أو خارجها والحكم عليهم أخلاقيًا.

وبهذا المعنى فإن الثقافة هي التربة التي تنشأ وتزدهر فيها الصور النمطية، وبما أن الثقافة غير متجانسة ومتنوعة ومتغيرة فإنها، من ناحية، تنتج أنواعًا متعددة من الصور النمطية، ولكنها، من ناحية أخرى، عندما تتغير تجعل صورًا نمطية أخرى تزدل وتموت. ولا شك أن المعرفة العلمية تغير من طبيعة الثقافة فتهدم الكثير مما يمكن النظر إليه باعتباره مسلمات ومعتقدات

إن طرح السؤال بهذه الطريقة يعني أن الصور النمطية قد تكون موجودة ولكنها لا تشكل انتهاكاً لحقوق الإنسان. كما يعنى كذلك أن من بين الصور النمطية ما لا يشكل انتهاكاً لحقوق الإنسان، وخاصة تلك التي تقوم على أحكام إيجابية كأن يتم وضع جماعة ما في قوالب الأكثر ذكاء أو الأكثر جمالاً. وفي الحقيقة أن حقوق الإنسان كتدابير قانونية لا تنشط في مواجهة صور ذهنية ولكن في مواجهة ممارسات ثقافية أو اجتماعية أو سياسية.

لنعطي مثالاً يوضح المقصود من وراء ذلك، قد تكون هناك صورة نمطية سلبية عن جماعة ما، وقد تظل هذه الصورة خاملة وغير مؤثرة طالماً لا تتجسد في ممارسات بعينها تشكل انتهاكاً ملموساً، كأن يتم الاعتداء على حقوق أعضاء الجماعة سواء بالفاظ أو بالمنع من الحصول على حق معين كالتوظيف أو السكن أو المشاركة ... إلخ. وبالتالي فقد تكون الصورة النمطية موجودة، وربما أيضاً تكون غير مقبولة أخلاقياً أو قيمياً، ولكنها لا تشكل انتهاكاً إلا إذا تجسدت في ممارسات تعد انتهاكاً لحقوق الإنسان.

والأكثر من ذلك، ثمة ممارسات تركز على الصور النمطية وقد تكون غير مقبولة أخلاقياً ولكن لا يمكن الإمساك بها بوصفها انتهاكاً لحقوق الإنسان بصورة مباشرة. فعلى سبيل المثال، عزوف أشخاص عن الزواج ممن ينتمون إلى جماعة ويجري تصنيفها وفق صور نمطية سلبية هل يُعتبر ذلك انتهاكاً لحقوق الإنسان؟ قد يكون من الصعب الربط المباشر بين مثل هذه السلوكيات وانتهاكات حقوق الإنسان على الرغم من أنها غير مقبولة أخلاقياً. إن فعل الامتناع عن الزواج يختلف عن منع الزواج إذا ما ارتضى شخصان من الجماعتين الزواج وتم منعهما من ذلك، ففي هذه الحالة يكون فعل المنع انتهاكاً لحقوق إنساني وهو الحق في الزواج.

وعلى الرغم من أن موثيق حقوق الإنسان الأساسية لم تأت على ذكر التنميط أو الصور النمطية، إلا أن الكثير من القراءات والآراء الحقوقية تربط بين التنميط والتمييز الذي يعنى التعامل بطريقة مختلفة مع شخص أو فئة أو جماعة على خلفية تتعلق بالانتماء أو الوضع الاجتماعي. ويصل التنميط ضد فئات معينة كالمهاجرين واللجئين وغيرهم من الفئات الضعيفة إلى حدّ

«التمييز العنصري» وخاصة عندما يرتبط بميزات أخرى ترتبط بالعرق أو الدين أو اللون.

وربما تكون الوثيقة الأساسية التي نصت على مواجهة الصور النمطية بصورة مباشرة هي الإعلان الصادر عن المؤتمر العالمي لمكافحة العنصرية والتمييز العنصري وكره الأجانب وما يتصل بذلك من تعصب، دريبان، ٢٠٠١ والذي ذكر التنميط السلبي وربطه بالتمييز العنصري، فتنص المادة ٧٩ من الإعلان على:

«نعتقد اعتقاداً راسخاً أن العقبات التي تحول دون إزالة التمييز العنصري وتحقيق المساواة العنصرية تكمن بصفة رئيسية في انعدام الإرادة السياسية وضعف التشريعات وعدم اتخاذ الدول استراتيجيات تنفيذية وإجراءات ملموسة وفي انتشار المواقف العنصرية والتنميط السلبي».

ونلاحظ هنا أن ذكر التنميط في الإعلان يقتصر على الجانب السلبي والذي قد يفضي إلى ممارسات تشكل انتهاكاً لحقوق الإنسان. وفي واقع الأمر أن التمييز العنصري يعد انتهاكاً خطيراً لأنه المدخل لانتهاك العديد من الحقوق، فالتمييز ببساطة يعنى أن الشخص أو الجماعة ضحية التمييز لا تحظى بالحقوق ذاتها المكفولة للآخرين.

وختاماً نقول إن العلاقة بين التنميط وحقوق الإنسان علاقة مركبة وقد تكون معقدة في بعض الأحيان، ولكن هناك دائماً مداخل لمواجهة الصور النمطية السلبية من خلال نشر وتعزيز قيم ومبادئ حقوق الإنسان. إن مواجهة هذه القوالب أو الصور السلبية يتطلب إصلاحات ثقافية من أجل التعايش والاعتراف بالاختلافات وهنا يمكن لقيم حقوق الإنسان أن تلعب دوراً ملموساً من خلال التربية والتأثير في عمليات الإصلاح الثقافي. أما في الحالات التي تتحول فيها الصور الذهنية إلى ممارسات تشكل انتهاكاً لحقوق الإنسان، فإن الأمر يتطلب تدخلات على مستوى التشريعات والسياسات لمنع هذه الانتهاكات ومحاسبة المسؤولين عنها.

إن المواجهة قد لا تقضي نهائياً على التنميط، ولكن المؤكد أنها سوف تحد من انتشاره، ويكفي أن تسفر الجهود عن تغيير الانطباعات الثقافية السائدة عن التنميط بوصفه ظاهرة طبيعية يتم التعايش معها، إلى كونه حالة مرضية ينبغي علاجها والقضاء عليها.

الفنون والصور النمطية

أشكال التنميط على المستويين العالمي والمحلي.

لعل صورة العرب في السينما الغربية أو الأمريكية أحد أبرز أشكال التنميط، ولذا فقد كانت موضع اهتمام عدد من الباحثين. ونشير هنا، على سبيل المثال، إلى عمل لأحد الكتاب الأمريكيين من أصل لبناني وهو جاك شاهين والذي قدم دراسةً استغرقت معه سنين طويلة هي فهرس يشرح ما تتضمنه الأفلام الأمريكية عن صورة العربي والمسلم منذ العام ١٨٩٦م، التي استخدمتها السينما الأمريكية في كل فيلم، ونشرها في كتاب بعنوان «العرب الأشرار في السينما: كيف تشوّه هوليوود شعباً» لم يكن شاهين قد التقى في بنسلفانيا قط بأي عربي مسلم حتى قارب الأربعة من عمره عندما فاز في السبعينيات بمنحة من مؤسسة فولبرايت الأمريكية للتدريس في بيروت واكتشف أنه لا يعرف شيئاً عن المنطقة التي ينتمي إليها أسلافه، فما كان يشاهده في الإعلام والتلفزيون والأفلام لا علاقة له بخبرته المباشرة في لبنان والأردن والسعودية، فأمضى العقدين التاليين في محاولة البحث في السبب الذي يقف وراء الاختلاف بين صورة العالم العربي في الولايات المتحدة، وقد وثق الباحث بشكل علمي الميل الواضح لشركات إنتاج الأفلام السينمائية في هوليوود لتصوير العرب على أنهم العدو رقم واحد للغربيين، من حيث وحشيتهم وبربريتهم وتفننهم في عمليات الاختطاف والتعذيب والاعتصاب والتدمير، وهم شيوخ البدو الصحراويين المتخلفين. ويخلص شاهين في كتابه إلى أن «العرب يبدون مختلفين وخطرين عند النظر إليهم من خلال عدسات هوليوود المشوهة».

<http://articles.islamweb.net/media/index.php?page=article&lang=A&id=7275>

تعتبر الفنون على إبداعات فردية أو جماعية يجري من خلالها بناء صور جمالية أحياناً تكون محاكية للواقع وأحياناً تكون خيالية أو خليطاً بين الواقع والخيال. وبهذا المعنى فإن الفنون والآداب هي منظومة صور يكونها المبدع ليس فقط حسب قدراته الفنية ولكن حسب الخبرة والوعي التي تشكل رؤيته أو رؤيتها للعالم. وعلى الرغم من أن الحكم على الصور الإبداعية من الأمور النسبية التي تتباين بشأنها الآراء وتتعدد الأذواق فما يستسيغه البعض قد لا يستسيغه آخرون، إلا أن هناك صوراً تتبع من تحيزات أو مواقف ثقافية ذات طبيعة عنصرية، وفي مقدمتها الصور النمطية عن الآخر.

فثمة العديد من الكتابات التي عالجت الصور النمطية في الأعمال الفنية وخاصة السينما، فنجد الكثير من العناوين حول صورة الآخر في الأدب أو السينما، أي كيف يتم تصوير قوميات أو جماعات عرقية أو فئات اجتماعية معينة في الأعمال الفنية؟ وإلى أي حد تعكس هذه الصور تحيزات ثقافية أو دينية أو جنسية أو غيرها من التحيزات؟

وقد يتصور البعض أن هذه التحيزات غير موجودة أو ربما تكون عابرة أو مجرد انعكاس لوعي المبدع كوعي فردي. ولكن في الحقيقة أن تتبع الصور النمطية والتحيزات في الأعمال الفنية والأدبية يكشف أن المسألة ليست بهذه البساطة، فأحياناً ما تكون الصور النمطية هي الأساس خاصة في الأعمال تعازل الثقافة العامة التي تتقبل بسهولة الصور النمطية عن الآخر.

ومن أجل إلقاء الضوء على اتجاهات الصور النمطية، سنقدم أمثلة من أحد أكثر المجالات الفنية تأثيراً، أي السينما، لأنه الأكثر انتشاراً والأكثر ارتباطاً بالصورة. ومن خلالها يمكن استعراض

وهنا لا يمكن الحديث عن مجرد إبداعات أو مواقف شخصية، بل عن اتجاه عام تمثله شركات الإنتاج وصناعة السينما. وهكذا فإن الصور النمطية عن العرب والمسلمين في الغرب ليست مجرد تخيلات فردية، بل هي عملية تنميط مؤسسي. ويعود الفضل إلى الكاتب الفلسطيني إدوارد سعيد الذي كان كتابه «الاستشراق» عملاً رائدًا في كشف آليات إنتاج الصور النمطية عن الآخر الشرقي في الفكر الغربي سواء كانت أدبًا أو إنتاجًا علميًا. فالاستشراق كعلم تأسس على صناعة الآخر وتقديم صور عنه تخدم مصالح الطرف الأقوى في المعادلة والذي هو الغرب. فثمة قوالب معرفية وثقافية يتم بموجبها تشكيل صورة الشرق ومنها أنه كائن عنيف أو شبيهي ويحتاج إلى ترويض. وليس غريبًا أن نسمع من السائحين عندما يأتون إلى المنطقة أنهم كانوا يتوقعون أن يجدوا الصورة التي في مخيلتهم عن المجتمعات الشرقية أي البداوة والبساطة، وليس الحالة المدنية المعقدة والتي تتشابه في كثير من جوانبها مع المدن الغربية.

أما على المستوى المحلي، فإن الصور النمطية في الأعمال الفنية في مجتمعاتنا مليئة بالصور النمطية، سواء تعلق الأمر برؤيتنا للغرب أو برؤيتنا لذاتنا. وتتضمن العديد من الأعمال الفنية أمهاتًا متعددة من التحيزات الجنسية والدينية والعرقية. فلا شك أن الترويج لصور نمطية عن النساء بوصفهن كيانات جنسية يعد مادة خصبة للكثير من الأعمال الفنية التي تبحث عن الرواج الشعبي. ويرتبط بذلك، هيمنة الصور النمطية المتعلقة بالذكورة والأنوثة بمعنى الذكر القوى العنيف مقابل الأنثى الرقيقة والضعيفة.

لقد شكل فريد شوقي ورشدي أباطة وغيرهم نماذج عن الصورة النمطية للرجل القوي والمسيطر، في حين أن الرقة والجمال والإغراء كانت من نصيب النساء بالأساس، ففكرة ممثلة الإغراء هي عملية منهجية لإنتاج صور نمطية عن المرأة. وبالطبع فإن الأمر لا يقتصر على التحيزات الجنسية، فثمة تحيزات ضد فئات اجتماعية أخرى، فعلى سبيل المثال كان تصوير أهل النوبة في الأعمال الفنية ليس له علاقة بثقافتهم أو حضارتهم، ولكن دائمًا بوصفهم خدم منازل، أما الصعيدي فكثرًا ما يظهر في الأعمال الفنية في قالب العنف أو الغباء.

ولنأخذ نموذجًا واحدًا لأحد أشهر الفنانين في مصر، وهو عادل إمام، فقد قدم في أعماله أمهاتًا متعددة من الصور النمطية منها ما يتعلق بالغرب ومنها ما يتعلق بفئات أو مجموعات اجتماعية. ولعل القارئ يتذكر الصورة النمطية الساذجة التي قدمها عادل إمام في فيلمه «التجربة الدائريكية» عن فتاة غربية من الدائمات متحررة بصورة مطلقة وتقوم بأفعال من المفترض أن تكون منافية للأخلاق المجتمعية.

ويجب أن ندرك أن هذه الصور النمطية التي يقدمها الفن لها تأثير على الوعي العام وخاصةً في ظل ثقافة محافظة ومجتمعات مغلقة على ذاتها. ومن ناحية أخرى فقد تضمنت أعماله صورًا نمطية عن «المثقف اليساري» باعتباره قدرًا وسكيرًا ومنحلًا أخلاقيًا، ولعل القارئ يستحضر هذه الصورة كما جاءت في فيلم «السفارة في العمارة».

وفي الحقيقة أن تتبع أشكال التنميط يحيلنا إلى العديد والعديد من الأعمال الفنية الأخرى، كأن نجد الصورة الكوميديية عن «المثقف اليساري» في فيلم مثل «فوزية البرجوازية»، أو صورة النساء اللبنانيات باعتبارهن موضوعًا لعلاقات سهلة كتلك التي قدمتها مسرحية مدرسة المشاغبين.

وفي الحقيقة أن الصور النمطية في الأعمال الفنية لها وظيفة، فقد تكون وظيفتها الإثارة مثل التحيزات الجنسية المرتبطة بالصور النمطية عن المرأة كموضوع جنسي، وقد تكون وظيفتها الإضحاك والفكاهة، مثل الصور النمطية عن الصعيدي أو ذوي اللون الأسود أو الشخص البدني، أو وظيفة سياسية كأن يتم التهمك من جماعات أو توجهات سياسية معينة، ويصل الأمر إلى توظيف أشكال معينة من الإعاقة الجسدية أو الذهنية لتكون مادة للتندر والإدهاش.

ومع الأسف الشديد فإن الكثير من هذه الطرق المهينة للكرامة تلقى قبولًا لدى المشاهدين، حيث تبدو الصور النمطية وكأنها مسألة طبيعية بدون إدراك لما تنطوي عليه من عنصرية وتحيز.

ولا يعني هذا أن كل الأعمال الفنية تعيد إنتاج صور فطية، فهذا منافٍ للحقيقة، لأن هناك الكثير من الأعمال الفنية التي ترتقي بالذوق العام، ومنها ما يكشف أشكال العنصرية والتحيزات في الثقافة العامة. ولكن ما نقصده هو تلك الاتجاهات الفنية المعنية بالإثارة والتي مع الأسف تحظى بشعبية. وأنصوّر أنه من الضروري أن تعي حركة النقد الفني والأدبي هذه الجوانب،

بحيث تؤخذ في الاعتبار عند تقييم الأعمال الفنية. إن النقد لا يعني فقط تناول الجوانب الفنية بل كذلك الجوانب التي تشكل انتهاكاً للحقوق والكرامة الإنسانية. وهنا أيضاً يبرز دور مؤسسات المجتمع المدني والمؤسسات الثقافية في مواجهة أشكال التنميط والتعصب والتحيز في الإنتاج الفني والأدبي.